مخطوط لم يعرف من قبل

ابن سينا والبعث

للاستاذ سليمان دنيـــا

عرض الغزالى فى كتابه « تهافت الفلاسفة » لفكرة البعث عند الفارابى وابن سينا وروى عنهما أنهما يقولان باستحالة البعث الجسمانى ، لأنه لا يمكن فى نظرهما إلا على واحدة من صور ثلاث :

الأولى : « أن يقال : الإنسان عبارة عن البـدن ، والحياة — التى هى عرض — قائمة به » . ثم أبطل هـذه الصورة على لسانهم قائلا : « وهذا ظاهر البطلان ، لأنه مهما انعدمت الحياة والبدن ، فاستئناف خلقهما إيجاد لمثل ما كان ، لا لعين ما كان »

الثانية : « أن يقال : النفس موجودة ، وتبقى بعد البدن ، ولكن يرد البدن الأول بجمع تلك الأجزاء بعينها » . ثم أبطل هذه الصورة على لسانهم قائلا : « لا يخلو : إما أن تجمع الأجزاء التى مات عليها فقط ، فينبغى أن يعاد الأقطع ومجدوع الأنف والأذن وناقص الأعضاء كما كان ، وهذا مستقبح ، ولا سيما فى أهل الجنة . وإن جمع جميع أجزائه التى كانت موجودة فى جميع عمره ، فهو محال من وجهين :

أحدهما : أن الإنسان إذا تغذى بلحم إنسان ، وقد جرت العادة به فى بعض البـلاد ، ويكثر وقوعه فى أوقات القحط ، فيتعذر حشرهما جميعاً ، لأن مادة واحدة كانت بدناً للمأكول ، وصارت بالغذاء بدناً للآكل ، ولا يمكن رد نفسين إلى بدن واحد . بل لا يحتاج فى تقرير هذه الاستحالة إلى أكل الناس الناس ، فإنك إذا تأملت ظاهر التربة المعمورة علمت بعد طول الزمان أن ترابها جثث المـوتى قد تربت وزرع فيها وغرس ، وصارت حباً وفاكهة ، وتناولتها الدواب فصارت لحماً ، وتناولناها فصارت أبداناً لنا ، فما من مادة يشار إليها إلا وقد كانت بدناً لأناس كثير ، فاستحالت وصارت تراباً ، ثم نباتاً ، ثم لحماً ، ثم حيواناً .

والثانى : أنه يجب أن يعاد جزء واحد ، كبداً وقلباً ، ويداً ورجلا ، فإنه ثبت بالصناعة الطبية أن الأجزاء العضوية يتغذى بعضها بفضلة غذاء البعض ، فيتغذى الكبد بأجزاء القلب ، وكذلك سائر الأعضاء » .

الثالثة : « أن يقال : المعاد هو رد النفس إلى بدن إنسانى ، من أى مادة كانت ، وأى تراب اتفق » . ثم أبطل هذه الصورة على لسانهم قائلا : « وهو محال من وجهين :

أحدهما : أن المواد القابلة للكون والفساد محصورة فى مقعر فلك القمر ، لا يمكن عليها مزيد ، وهى متناهية ، والأنفس المفارقة للأبدان غير متناهية — أى بناء على نظرية قدم العالم عندهم — فلا تفى بها .

والثانى : أن التراب لا يقبل تدبير النفس ، ما بقى تراباً ، بل لا بد أن تمتزج العناصر امتزاجاً يضاهى امتزاج النطفة .

ومهما استعد البدن والمزاج لقبول نفس ، استحق من المبادئ الواهبة للنفوس حدوث نفس ، فيتوارد على البدن الواحد نفسان — إحداهما هى نفسه الأصلية ، والأخرى هى التى استحقها حين صار من جديد بدناً ذا مزاج ؛ فإن من شأن العقل الفعال عندهم أن يفيض على المادة ، حين تصبح ذات مزاج ، نفساً مناسبة لذلك المزاج : نباتية ، أو حيوانية ، أو إنسانية — وبهذا بطل مذهب التناسخ . وهذا المذهب هو عين التناسخ ، فإنه رجع إلى اشتغال النفس ، بعد خلاصها من البدن ، بتدبير بدن آخر غير البدن الأول ، فالمسلك الذى يدل على بطلان التناسخ ، يدل على بطلان هذا المذهب » .

* * *

هذا ما يرويه الغزالى عن الفارابى وابن سينا ، ولكننا إذا رجعنا إلى « الشفاء » لابن سينا وجدناه يقول فيه : الفن الثالث عشر ، إلهيات ص ٦٣٤ ط الهند : « يجب أن يعلم أن المعاد منه ما هو مقبول من الشرع — وفى نسخة : مقبول فى الشرع — ولا طريق إلى إثباته إلا من طريق الشريعة ، وتصديق خبر النبى ، وهو الذى للبدن عند البعث ، وخيرات البدن وشروره معلومة لا يحتاج إلى أن تعلم ، وقد بسطت الشريعة الحقة التى أتانا بها نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله ، حال السعادة والشقاوة التى بحسب البدن .

ومنه ما هو مدرك بالعقل والقياس البرهانى ، وقد صدقته النبوة ، وهو السعادة والشقاوة الثابتان بالقياس اللتان للأنفس ، وإن كانت الأوهام منا تقصر عن تصورها الآن لما نوضح من العلل والحكماء الإلهيون رغبتهم فى إصابة هذه السعادة أعظم من رغبتهم فى إصابة السعادة البدنية ، بل كأنهم لا يلتفتون إلى تلك .

فلنعرف حال هـذه السعادة ، والشقاوة المضادة لها ؛ فإن البدنية مفروغ منها فى الشرع ... »

وورد كذلك فى النجاة ص ٤٧٧ ط الكردى هذا النص بلفظه وحروفه .

***

ومن كل هذه النصوص يظهرلنا تناقض واضح بين ما يقوله ابن سينا عن نفسه فى « الشفاء » و« النجاة » وما يقوله الغزالى عنه فى كتابه « التهافت » ، فهو يقول عن نفسه : إن البعث الجسمانى ممكن وواقع ؛ والغزالى يقول عنه : إن البعث الجسمانى مستحيل .

وهنا يطرأ على بال الباحث المتفحص سؤال لا بد منه ، هو :

هل الغزالى متقول على الفلاسفة غير أمين فى نقله عنهم ؟ ! أم أن لهذه المسألة عند ابن سينا سراً خفياً يتطلب الصبر والأناة حتى يوقف على غوره ودخيلته ؟ أعنى : هل للمسألة عنده ظاهر وباطن ، ظاهر يكشفه للعامة ، وباطن يحتفظ به لنفسه ، ولمن يؤهلهم استعدادهم لفهمه ، وعن هـذا الظاهر تحدثت الشفاء والنجاة ، وعن هذا الباطن نقل الغزالى ؟ !

كلا الأمرين جد خطير ، لا ينبغى أن يصار إليه عن طريق الظنون والتخمينات ، فإن الظنون والتخمينات لا توصل إلى العلم الصحيح ، وإنما ينبغى أن يصار إليه عن طريق التثبت واليقين

***

قد يحتال لإزالة هذا التعارض فيقال : إن ابن سينا نفسه نزع الوثوق من كتاب « الشفاء » ، ولم يرفيه معبراً عن أفكاره ومعتقداته ، بل رآه معبراً عن أفكار المشائين ونزعاتهم . ومتى صح ذلك لم يجدر بنا اعتبار ما ورد فيه مصوراً لأفكار ابن سينا وذلك حيث يقول فى مقدمة « منطق المشرقيين » :

« ... وبعد ، فقد نزعت الهمة بنا إلى أن نجمع كلاماً فيما اختلف أهل البحث فيه ، لا نلتفت فيه لفت عصبية أو هوى ، أو عادة أو إلف ، ولا نبالى من مفارقة تظهر منا لما ألفه متعلمو كتب اليونانيين إلفا عن غفلة وقلة فهم ، ولما سمع منا فى كتب ألفناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين ، الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم ، ولم ينل رحمته سواهم !

ولما كان المشتغلون بالعلم شديدى الاعتزاء إلى المشائين من اليونانيين كرهنا شق العصا ومخالفة الجمهور ، فانحزنا إليهم وتعصبنا للمشائين ، إذ كانوا أولى فرقهم بالتعصب لهم ، وأكملنا ما أرادوه وقصروا فيه ولم يبلغوا أربهم منه ، وأغضينا عما تخبطوا فيه ، وجعلنا له وجهاً ومخرجاً ونحن بدخلته شاعرون ، فإن جاهرنا بمخالفتهم ، ففى الشيء الذى لم يمكن الصبر عليه ، وأما الكثير فقد غطيناه بأغطية التغافل .

فمن جملة ذلك ما كرهنا أن يقف الجهال على مخالفة ما هو عندهم من الشهرة بحيث لا يشكون فيه ويشكون فى النهار الواضح ؛ وبعضه قد كان من الدقة بحيث تعمش عنه عقول هؤلاء الذين فى العصر ...

وما جمعنا هـذا الكتاب — يعنى فلسفة الإشراقيين — لنظهره إلا لأنفسنا ، أعنى الذين يقومون منا مقام أنفسنا ، وأما العامة من مزاولة هذا الشأن ، فقد أعطيناهم فى كتاب الشفاء ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم »

وكتاب النجاة صورة مصغرة لكتاب الشفاء وتلخيص له أثبت ذلك البحث والتمحيص ، فالوثوق به من نوع الوثوق بكتاب الشفاء وفى درجته .

وأكثر من ذلك أن ابن سينا فى نفس الشفاء ص ٦٤٧ ، والنجاة ص ٥٠١ ، صرح بأن نصوص الشرع فى مسألة المعاد يجب أن تتلقى بحيطة وحذر ، إذ أنها تنزلت عند مستوى عقول العامة ، فصورت لهم أمر المعاد بالصورة التى يستطيعون فهمها ، لا بالصورة التى هو عليها فى نفس الأمر ، استمع إليه يقول :

« وكذلك يجب أن يقرر عندهم — أى يجب أن يقرر النبى عند العامة — أمر المعاد على وجه يتصورون كيفيته وتسكن إليه نفوسهم ويضرب للسعادة والشقاوة أمثالا مما يفهمونه ويتصورونه وأما الحق فى ذلك فلا يلوح لهم منه إلا أمراً مجملا ، وهو

أن ذلك شيء لا عين رأته ولا أذن سمعته ، وأن هناك من اللذة ما هو ملك عظيم ، ومن الألم ما هو عذاب مقيم » .

والنص بنفس هذه الحروف والكلمات وارد في الكتابين .

أضف إلى ذلك أن ابن سينا صرح في الإشارات بما يفيد أن المعاد بالروح وحده دون الجسم ، قال في ص ١٩٥ ط ليدن : « والعارفون المتنزهون إذا وضع عنهم درن مقارنة البدن وانفكوا عن الشواغل ، خلصوا إلى عالم القدس والسعادة ، وانتعشوا بالكمال الأعلى ، وحصلت لهم اللذة العليا » .

وفي ص ١٩٦ : « وأما البله فإنهم إذا تنزهوا خلصوا من البدن إلى سعادة تليق بهم ، ولعلهم لا يستغنون فيها عن معاونة جسم يكون موضوعاً لتخيلات لهم ، ولا يمنع أن يكون ذلك جسما سمائياً أو ما يشبهه ، ولعل ذلك يفضي بهم آخر الأمر إلى الاستعداد للاتصال المسعد الذي للعارفين » .

وفي ص ١٩١ : « فلا ينبغي لنا أن نستمع إلى من يقول : إنا لو حصلنا على حالة لا نأكل فيها ولا نشرب ولا ننكح ، فأية سعادة تكون لنا ؟ ! والذي يقول هذا ، فيجب أن يبصّر ويقال له : يا مسكين ! لعل الحالة التي للملائكة وما فوقها ألذ وأبهج وأنعم من حال الأنعام ، بل كيف يمكن أن تكون لإحداهما إلى الأخرى نسبة يعتد بها ؟ »

بل إنه صرح في « الشفاء » و « النجاة » بمثل ما جاء في الإشارات . قال في النجاة ص ٤٨٥ : « فإذا فارقت — يعني فارقت النفس البدن — ولم يحصل معها ما يحصل به بعد الانفصال إلى التمام ، وقعت في هذا النوع من الشقاء الأبدي ؛ لأن أوائل الملكة العلمية إنما كانت تكتسب بالبدن لا غير ، وقد فات » .

وقال في ص ٤٨٨ : « وإن كانت مكتسبة للهيئات البدنية الردية ، وليس عندها هيئة غير ذلك ، ولا معنى يضاده وينافيه ، فتكون لا محالة ممنوة بشوقها إلى مقتضاها ، فتتعذب عذاباً شديداً بفقد البدن ومقتضيات البدن من غير أن يحصل المشتاق إليه ، لأن آلة ذلك قد بطلت ، وخلق التعلق بالبدن قد بقي » .

ونفس هذا النص قد ورد في الشفاء .

***

من كل هذا يخلص لنا :

أولا : إمكان اعتبار ابن سينا قائلا بالبعث الروحاني فقط ، وفي هذه الدائرة يصدق نقل الغزالي عنه .

ثانياً : أن ابن سينا غير متناقض في حديثه عن البعث ، ولكن له فيه ظاهر وباطن ، ومن لم يفطن لهذين الجانبين فيه ظنه متناقضاً ، وليس الأمر من التناقض في شيء .

ولكن ليس هذا هو كل ما يهم الباحث المتفحص في هذا المقام ، فليست إزالة التناقض بين نصوص ابن سينا المختلفة وإزالة التناقض بين حديث الغزالي عن ابن سينا وحديث ابن سينا عن نفسه — وإن أدخلت على تاريخ الفلسفة تكميلا كان يتطلبه — هي كل شيء في هذا المقام .

ذلك أن الغزالي لم يدع في كتابه « التهافت » أن ابن سينا منكر للبعث الجسماني وكفى ، إذ لو كان الأمر كذلك لكان في إزالة التناقض على الوجه السابق — وهو نتيجة بحثنا الخاص — غناء وأي غناء ، ولكن الغزالي أضاف إلى ابن سينا مع هذه الدعوى أدلة شققها تشقيقاً وفرعها تفريعاً ، فكان لا بد لتاريخ الفلسفة أن يعرف أمرين على جانب كبير من الأهمية :

أحدهما يتصل بابن سينا نفسه ليعرف التاريخ هل هذه الأدلة المعزوة إلى ابن سينا في كتاب (تهافت الفلاسفة) صحيحة النسبة إليه ؟ فإنه إن صحت نسبتها إليه ، جاز للتاريخ أن يقول على وجه القطع — استمداداً من هذه الأدلة وحدها — إن ابن سينا قائل باستحالة البعث الجسماني .

وثانيهما يتصل بالغزالي ، إذ قد عرض لكثير من الفرق المختلفة وناقشها وساق أدلة ودعاوى عزاها إليها ، وقد لا يتيسر الآن الرجوع إلى المصادر الأصلية لهذه الفرق . فهل الغزالي ثقة فيما ينقل ويروى ؟ أم تتسرب إلى نقله الريب وتحوم حوله الشكوك ؟ وهذا جانب هام يعني تاريخ الفلسفة أن يقف على وجه الحق فيه .

***

هذه ثغرة لم أجد — فيما قرأت — من حاول سدها في تاريخ ابن سينا وتاريخ الغزالي على السواء .

ابن سينا : هل قال ما نسب إليه الغزالي من أدلة لإنكار البعث الجسماني ؟ !

والغزالى : من أين استقى هذه المعلومات ؟ !

ومما يزيد الأمر خطورة أن المسألة لم تقف عند ابن سينا والغزالى ، بل جاوزتهما إلى من أخذ عن الغزالى من علماء الكلام وإلى من دافع عن ابن سينا ، كابن رشد . فكان على علماء الكلام أن يعرفوا — قبل أن يرددوا — من أى المصادر استقى الغزالى هذه الأدلة التى يعزوها إلى ابن سينا ، فهل عرفوا ؟! ..
وكان على ابن رشد أن يعرف – قبل أن يناضل ويدافع — هل ما نسب إلى ابن سينا صحيح النسبة إليه ، فهل عرف ؟! ..

***

ثغرة أدركتها أول الأمر ضيقة ، ثم ما زالت تتسع أمامى حتى وصلت إلى ما رأيت . ولشعورى القوى بحاجة تاريخ الفكر الإسلامى إلى سدها ، حاولت أن أسدها على أى وضع كان ، فقلت معلقاً على هذه الأدلة التى يعزوها الغزالى إلى ابن سينا ، وأنا أخرج كتاب « تهافت الفلاسفة » « هذا المثال — أعنى قوله : إن الإنسان إذا تغذى بلحم إنسان ... الخ — وغيره ، نجده موجوداً فى كتب الكلام بنصه وفصه ، فلعل علماء الكلام لم يرجعوا إلى كتب الفلاسفة نفسها — نظراً لأنى لم أجد فيما لدى من كتب الفلاسفة وقتذاك شيئاً من هذا الكلام — وإنما عولوا على هذا التصور الذى اضطلع به الغزالى . على أنى أكاد أجزم بأن الغزالى فى تصور وجهة نظر الفلاسفة ما كان يقف عند الحد المنصوص عليه فى كتبهم ، وإنما كان يفترض افتراضات ويذكر احتمالات ويناقشها ليخلص له : أن كل ما يمكن أن يقال على لسانهم فهو مدفوع مردود » .

وظل الأمر واقفاً عند هذا الحد : ثغرة تتطلب سداً محكماً من الفولاذ ، وضمت فيها لفافة من الخيش إلى أن تكفل هذا المخطوط بهذا السد الفولاذى .

وإلى اللقاء فى مقال تال — إن شاء الله — نحلله فيه ولنتعرف محتوياته .

سليمان دنيا
مدرس الفلسفة وعلم العقيدة
بكلية أصول الدين

نداء الفـــداء

أو أنشودة الجهاد فى حومة فلسطين

نص الغنائية الحماسية التى هتف بها الشاعر على محمود طه وألف منها الموسيقار محمد عبد الوهاب لحنه الجديد « أنشودة فلسطين »

أخى ! جاوز الظالمون المدى فحق الجهاد وحق الفدا
أنتركهم يغصبون العروبـ ـة مجد الأبوة والسؤددا
وليسوا بغير صليل السيوف يجيبون صوتاً لنا أو صدى
فجرد حسامك من غمده فليس له بعدُ أن يغمدا
أخى ! أيها العربى الأبى أرى اليوم موعدنا لا الغدا
أخى ! أقبل الشرق فى أمة ترد الضلال وتحيي الهدى
أخى ! إن فى القدس أختاً لنا أعدّ لها الذابحون المُدى
صبرنا على غدرهم قادرين وكنا لهم قدراً مرصدا
طلعنا عليهم طلوع المنون فطاروا هباء وصاروا سدى
أخى ! قم إلى قبلة المشرقين لنحمى الكنيسة والمسجدا
« يسوع » الشهيد على أرضها يعانق فى جيشه « أحمدا »
أخى ! قم إليها نشق الغمار دماً قانياً ولظى مرعدا
أخى ! ظمئت للقتال السيوف فأورد شَباها الدم المصعدا
أخى ! إن جرى فى ثراها دمى وأطبقت فوق حصاها اليدا
ونادى الحمام وجن الحسام وشب الضرام بها موقداً
ففتش على مهجة حرة أبت أن يمر عليها العدا
وخذ راية الحق من قبضة جلاها الوغى ونماها الندى
وقبل شهيداً على أرضها دعا باسمها الله واستشهدا
فلسطين يفدى حماك الشباب وجل الفدائى والمفتدى
فلسطين تحميك منا الصدور فإما الحياة وإما الردى !

على محمود طه